الفصل السادس عشر

بائعة المناديل

«في ليلة رأس السنة الميلادية الباردة، خرجت فتاة فقيرة تحاول بيع الكبريت في الشارع بناءً على أمر من والدها، إلا أنها كانت ترتجف من شدة البرودة، وكانت تخشى العودة إلى منزلها دون بيع أي كبريت. كانت الفتاة عارية الرأس ومعدتها فارغة من الطعام وحافية القدمين حيث أنها فقدت حذاءها. حاولت الفتاة المناداة على بيع الكبريت، إلا أنه لم يسمعها أي شخص، وظلت حبات الثلج تتساقط على شعرها الأشقر الطويل.»

«عندما شعرت الفتاة بالتعب الشديد، جلست الفتاة تأوي نفسها في زاوية، وبدأت في تدفئة نفسها بأضواء الكبريت من خلال إشعال أعواد الكبريت. بدأ حلمها في العود الأول وبعد أن انطفأ، قامت بإشعال الآخر والذي جعلها تتخيل أمامها مائدة كبيرة من الطعام عليها كل ما طاب ولذ من ديك رومي وغيره من

الأطعمة اللذيذة، وبعد أن انطفأ قامت بإشعال العود التالي. وحينذاك كانت احتفالات رأس السنة مع الألعاب النارية التي تنطلق لتضيء السماء بأضوائها المتلألئة، بما في ذلك شجرة عيد الميلاد المضيئة.»

«نظرت الفتاة إلى السماء وتذكرت جدتها المتوفية، واعتقدت أن هذا النيزك كما لو أنه يعني شخصا يحتضر ويسير إلى السماء، وأصبحت تأمل في الذهاب لرؤية جدتها حيث انها الشخص الوحيد الذي عاملها بكل حب وحنان وملأها بالعطف والحنية، وبدأت متابعة إشعال كبريت واحد تلو الآخر للحفاظ على رؤية جدتها على قيد الحياة، ومن ثم صرخت لجدتها: خذيني خذيني إليك يا جدتي. كانت تعلم أن أعواد الكبريت ستنطفئ، وستنطفئ معه كل الآمال والأحلام التي دارت مع إضاءات الكبريت، إلا أن مع آخر ضوء للكبريت، رأت جدتها تقترب إليها وتحتضنها بين ذراعيها وتأخذها إلى السماء معها، فما لبثت أن تشعر بالجوع أو العطش أو أي ألم. بعد نفاد الكبريت، توفيت الطفلة، ووجدت جدتها تحمل روحها إلى السماء لتعيش معها في السماء حياة سعيدة مليئة بالحب. في صباح اليوم التالي، عثر المارة على طفلة ميتة مبسطة في زاوية وشعروا بالشفقة نحوها.»

شعرت بالصدمة عند قراءة تلك النهاية اليوم، فقد كنت أعتقد أن مصير بائعة الكبريت هو أن تعثر عليها إحدى الأسر وتقوم بالعطف عليها وإعطائها الملابس والطعام.

ولكن أنظري حولك، أنظري في كل مرة تركبين فيها السيارة أو الحافلة وتشاهدين المرأة التي تأتي وتنادي «مناديل، مناديل»، وكذلك تلاحظين تلك المرأة التي تجلس ليل نهار في برودة الشتاء أو في حرارة الصيف «وهي تبيع: بضاعتها الصغيرة ولكن من النادر أن يلتفت أحدهم إليها.

هل تشعرين بأن حياتك بائسة للغاية؟، كنت أجلس في السيارة المسافرة إلى محافظة القاهرة؛ فدراستي في إحدى الجامعات الخاصة البعيدة، كنا حينها في فصل الشتاء البارد.

وجدت إحدى الفتيات الجميلات التي تبيع الحلوى، تلك كانت المرة الأولى التي أجد فيها كل من في السيارة يخرجون المال من جيوبهم، في العادة كان يتجاهل جميع الركاب أصوات النساء في طلب المساعدة.

لاحظت بطرف عيني نزول أحد الركاب وراء تلك الفتاة، وأعطاها ورقة، أحسنت الظن وقلت ربما عنوانا للعمل؛ ولكن مظهر الرجل لم يكن يشعرني بالاطمئنان؛ فمنذ ركوبنا وهو يطيل النظر لي من فترة لأخرى.

قررت ألا أكون سلبية ونزلت على الفور، تبعت الفتاة حتى استوقفتها وطلبت منها أن تريني الورقة «بالطبع كانت خائفة ورفضت في البداية ولكن يبدو أنها شعرت بالخوف بسبب غضبي فأخرجتها».

الورقة عبارة عن عنوان هذا الخنزير بالإضافة إلى جملة: 200 جنيه لليلة الواحدة!

سألتها ماذا تنوي أن تفعل، وجدتها تخبرني أنها لا تستطيع القراءة أو الكتابة وأنه أخبرها بالعنوان شفهيا بعد إعطائها الورقة.

لم أكن أدري ماذا أفعل، أعطيتها رقمي في ورقة وطلبت منها الإتصال بي من أي سنترال عند الحاجة.

وعدت إلى السيارة الواقفة، كان يحدق بي الرجل من حين لآخر كنت أود أن اقتلع عيني هذا الزاني الحقير، ثم وجدتني أتحدث بصوت عالي في السيارة وقمت بفضحه.

أنكر حينها وأخبرنا أن تلك الفتاة ليست سوى كاذبة، وأنني أسأت فهم الأمر؛ تدخل الركاب حتى انتهى النقاش بجملة: «يا جماعة صلوا على النبي»، «وانتى يا آنسة إن بعض الظن إثم».

عندما أتذكر هذا الحدث، تلمع أمامي تلك الجملة التي سمعتها من قبل: «دورك إنك تساعدي غيرك، تساعدي بنت عاوزة تتعلم، واحدة شايلة ابنها وماشية بيه في الشارع بتبيع مناديل، يا إسراء لو عرفتي توصلي في يوم من الأيام لمنصب أو وظيفة كويسة؛ وجتلك الفرصة تساعدي ست ضعيفة ماترددیش».

أنا أؤمن بمبدأ أن كل فتاة وامرأة طالما رزقت بالحياة الكريمة، فعليها التوقف عن الشكوى والبدء في محاولة تطوير فتاة أخرى تحتاج للمساعدة.

عدو المرأة هو المرأة نفسها، لا تتجاهلي استغاثة إحداهن وقدمي المساعدة على قدر استطاعتك.